رواية الخواجا وأدب الحقيقة

Novel Khawaja and literature truth

إعداد

أ.د/ عايدي علي جمعة

أستاذ الأدب والنقد - كلية الإعلام – جامعة أكتوبر للعلوم الحديثة والآداب- مصر

Doi: 10.21608/mdad.2021.167738

الاستلام: ٢٠٢١/٣/٢٧م القبول : ١٥ / ٤ /٢٠٢١م

المستخلص :

إن بنية الرواية التخييلية لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة في الحياة الاجتماعية والثقافية على السواء . في ضوء ذلك تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على العملية التفاعلية بين رواية الخواجا للكاتب اللبناني محمد الطعان من ناحية والعالم الخارجي الحاف بإنتاجها من ناحية أخرى.

Abstract:

The structure of the fictional novel does not arise from a vacuum, but rather is an outgrowth of the realistic structure prevailing in social and cultural life alike. In light of this, this study comes to shed light on the interactive process between the novel Al-Khawaja by the Lebanese writer Muhammad Al-Taan on the one hand and the external world that is bordering its production on the other hand.

مقدمة:

ما علاقة الأدب بالواقع؟ يعد هذا السؤال ذا أهمية خاصة. ومنذ أفلاطون رأينا ظهورا لهذا السؤال، فعند أفلاطون أن الأدب يحاكي الواقع ، في حين يحاكي الواقع عالم المثل، ومن هنا فإن ما نراه في الطبيعة لا يعد هو الحقيقة، وإنما الحقيقة ليست هنا، وإنما تقبع هناك في عالم المثل، وما الواقع الذي نراه أمامنا إلا خيال يعكس الحقيقة الماثلة في عالم المثل، ويأتي الأدب ليتراجع درجة لأنه محاكاة المحاكاة.

ولكن أرسطو يرفض تماما فكرة عالم المثل ويرى أن العالم الذي نعيش فيه هو حقيقة، ويأتي الأدب ليعكس هذه الحقيقة. وبذا فإن أرسطو يرتفع بالأدب درجة عن أفلاطون، لأنه جعل الأدب محاكاة، وليس محاكاة المحاكاة.

ويرى مندلاو "أن الرواية، باعتبارها من فنون المحاكاة، تتعامل مع مواضيع وليس مع علاقات خالصة، وهذه المواضيع ليست مجردة، وإنما تتصل اتصالا وثيقا بالحياة ومشكلات العيش، ومع أن عدسة رؤية الكاتب تحرفها فإنها تحتفظ بعنصر مشترك مع رؤية الآخرين"(١).

وعلى الرغم من إغراق نظرية المحاكاة في القدم فإن صداها ما زال حتى الآن يتردد بقوة، سواء كان هذا التردد بالرفض أم بالقبول أم بالتحوير. حيث ظهرت نظريات ترفض أن يكون الأدب محاكاة لشئ أصلا، وترى أن النص عالم قائم بذاته، ويجب الدخول إلى عالمه من هذا المنطلق.

وتعد المدرسة البنيوية من أهم المدارس التي كرّست لهذا التوجه، ولكن البنيوية تعرضت لنقد حاد في هذا الجانب، ومن هنا فقد ظهر ضمن حركيتها توجهات حاولت رأب الصدع بين هذه المدرسة من ناحية والعالم الخارجي من ناحية أخرى، على نحو ما نرى عند لوسيان جولدمان مثلا.

كما ظهرت مدارس مختلفة جعلت جل اهتمامها وضع العالم الخارجي في الاعتبار مثل النقد الثقافي وغيره. ومن هنا فإن إعادة الاعتبار للعالم الخارجي باعتباره حقيقة تظهر في الإنتاج الأدبي أصبحت واضحة في كثير من الكتابات النقدية المعاصرة على الرغم من الهزة الحقيقية لهذا العالم على يد معاول المدارس النقدية التي رأت في الأدب عالما مغلقا قائما بذاته.

"كيف يمكن أن نتصور إنتاجا أدبيا ما دون أن يكون هذا الإنتاج متصلا اتصالا وثيقا بالمسألة الثقافية، ودون أن يكون على ارتباط بالمجتمع في مختلف صوره وأشكاله، أي دون أن يكون مؤسسا، على تصور ما للإنتاج الفني والأدبي أو على صلة بالمجتمع في واقعه وصيرورته؟، وكيف يمكن لنا أن نتخيل هذا "التصور" الفني أو الأدبي بدون أن يكون له "تاريخ"ــه، الذي هو جزء من تاريخ المجتمع الذي ينتمي إليه"(٢)

ومن هنا يمكن القول إن "بنية الرواية التخييلية لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة في الحياة الاجتماعية والثقافية على السواء"(٣).

في ضوء ذلك تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على العملية التفاعلية بين رواية الخواجا للكاتب اللبناني محمد الطعان من ناحية والعالم الخارجي الحاف بإنتاجها من ناحية أخرى.

وتقع رواية الخواجا للأديب اللبناني محمد الطعان في ١٤٢ صفحة من القطع المتوسط، وهي رواية تجعل من الحرب الأهلية اللبنانية فضاء تتحرك فيه، وكلمة

الخواجا عند اللبنانين تعني شخصية مسالمة لها أريحية خاصة تعمل جهد طاقتها من أجل إسعاد الآخرين، حيث إن "من بين العادات التي ظلت حية عبر الزمن والتي ترسخت في وجدان اللبنانيين، عادة إطلاق تسمية "الخواجا" ـ وهي كلمة من أصل عجمي ـ على كل وجيه وعلى كل عين من أعيان قراهم أو مجتمعهم، وهي عادة ما تزال حتى اليوم كثيرة الانتشار"(٤). وهذا ما تكشفت عنه أحداث هذه الرواية، حيث يتم التركيز على شخصية الخواجا أو مسيو جوزيف الذي يلتقي شخصية الطبيب الذي يعالجه في أسفل ملجأ أثناء الحرب الأهلية اللبنانية فيشعر الطبيب بانجذاب إنساني تجاه هذه الشخصية ذات البريق الإنساني المتميز، فيتعرف من خلاله على موضوع الكنز البابوي الذي ورثه عن عائلته، فقد استلم أمير البلاد في القرن التاسع عشر كنزا بابويا هدية له يتمثل في صليب ذهبي خالص طوله تسعون سنتيمترا، ومعه أيقونة للعذراء مريم، ولكن بعد وفاة الأمير تسلم أسرته هذا الكنز لخادمهم المخلص سليم البستاني جد مسيو جوزيف، ويسود اعتقاد جازم بأن هذا الكنز يحمي قرية "الجية" التي يعيش فيها هذا الجد من كل شر، ثم يؤول أمر الكنز إلى مسيو جوزيف، فيعتني به عناية فائقة، ولكن تدور الحرب الأهلية الطاحنة مما يضطر الخواجا إلى مغادرة القرية كي يلحق بأسرته التي سبقته إلى بيروت فرارا من شبح الحرب الأهلية، وكان ذلك بناء على تشجيع أحمد له موهما إياه بأن الكنز سيكون في أمان، ولكن أحمد يسرق هذا الكنز، وأحمد هذا هو ابن فاطمة المسلمة التي تعد أختا للخواجا من الرضاعة على الرغم من أن الخواجا شخصية مسيحية وفاطمة شخصية مسلمة، في إشارة دالة إلى اتحاد الوطن اللبناني ـ قبل الحرب الأهلية ـ في وحدة واحدة رغم تعدد دياناته ومذاهبه، وكان الخواجا وهو في بيروت يحاول بكل قوة أن يتحدى شبح الحرب الطاحنة وشبح مرضه الفاتك لكي يعود إلى بيته من أجل الاطمئنان على الكنز البابوي الذي يحمي القرية كلها من وجهة نظره، ولكن الأقدار لم تمكنه أبدا من تحقيق رغبته وهو حي، وبعد أن يموت متأثرا بمرض سرطان الرئة الذي فتك به تعود رفاته مع رفات ابنه البكر الذي تطوع في الصليب الأحمر وفقد حياته بصورة مأساوية إثر تعرض الإسعاف التي هو فيها لقذيفة مدمرة أطلقها أحمد عليها.

ولكن رغم العنف الشديد الذي تحركت فيه الرواية من بدايتها حتى قرب نهايتها عبر كتل سردية كبيرة ومليئة بأحداث العنف فإن النهاية جاءت بالسلام الشامل، فأحمد ابن فاطمة أخت الخواجا من الرضاعة، والذي أصبح ميليشاويا يفتك بالجميع، والذي سرق الكنز البابوي يعود لسلامه النفسي ويُرجع الكنز إلى بيت الخواجا ويحتضن تيودور ابن الخواجا الأصغر، ويرفرف السلام على الجميع في هذا البيت بعد انتهاء الحرب الأهلية.

ومن هنا فإن أدب الحقيقة يظهر بوضوح من خلال هذه الرواية، وأدب الحقيقة هو ذلك الأدب الذي يتحرك في فضاء مقنع بحقيقته، وكأن أحداثه تتحرك في فضاء ينتمي

للحقيقة وليس للخيال، حبث تبدو أحداث الرواية متوائمة مع ما نتمثله نحن أو ما يمكن أن نتمثله عمّا حدث في لبنان أثناء الحرب الأهلية.

ومن المعروف أنه "في كل حكاية، مهما قصرت، متكلم يروي الحكاية ويدعو المستمع إلى سماعها بالشكل الذي يرويها به، هذا المتكلم هو الراوي أو السارد، لا حكاية بلا راو يرويها"(٥)، وقد جاء السرد في هذه الرواية من خلال السارد المشارك في الأحداث، وعلى الرغم من أن هذا السارد مشارك فإنه لم يكن هو الشخصية المحورية في هذه الرواية، فقد كان هو الطبيب المعالج للخواجا والذي عرف منه الكثير من الكتل السردية التي سردها لنا. ومن هنا فإن الضمير المهيمن فيها هو الضمير الثالث هو، لأنه جعل سرده كاشفا عن شخصية أخرى غير شخصيته، وهي شخصية الخواجا.

وعلى الرغم من ذلك فإن حضور السارد في الكتل السردية كان موجودا. وهو سارد طبيب يبدو عليه سمات النضج والقوة في الحركة لأنه سافر إلى الجنوب ومر على بيت الخواجا بطلب منه. ووجود سارد طبيب يبدو مقنعا بالحقيقة الموضوعية للأحداث، فوجود طبيب معالج في بيروت لشخصية مريضة بسرطان الرئة، ولقاء هذا الطبيب بهذه الشخصية في الملجأ في وقت الحرب لا يصيب تمثلنا أو ما يمكن أن نتمثله لعالم الحرب الأهلية في لبنان بصدع يجعل ذلك منافيا للحقيقة الموضوعية التي تقبع هناك خارج النص الأدبي.

ومن هنا فإن هذه الرواية ـ كما سبق القول ـ تنتمي لأدب الحقيقة، وكانت الحرب الأهلية اللبنانية كاشفة ومؤثرة في طبيعة الشخصيات وتفاعلها، وهنا كان للزمكاناس طبيعة خاصة بأثر من هذا التفاعل. وكان لهذه الطبيعة الخاصة دور كبير في تكريس عملية تواؤم ـ فيما يمكن أن نتمثله عن العالم ـ بين عالم الرواية من ناحية والعالم الخارجي القابع بعيدا عنها من ناحية أخرى.

وقد كانت الشخصية المحورية وهي شخصية الخواجا شخصية في نهاية العمر، بل إن حركية السرد في الرواية قد وصلت إلى موتها، وما بعد موتها. وهي شخصية مسيحية تنتمي لعنصر الرجال ويبدو نبلها الشديد في التعامل مع الناس على اختلاف أطيافهم، ولذا فقد كانت شخصية محترمة ومقدرة من الجميع، رغم اختلاف الملل والمذاهب.

وكانت البنية الزمنية في هذه الرواية لا تعتمد الخطية وإنما كانت هناك عملية ارتداد كبير في الكتلة السردية الثانية، حيث عاد السرد إلى الجد الأكبر للخواجا والذي استلم الكنز البابوي من أسرة الأمير. كما استمر الارتداد ليكشف عن بعض الأحداث في حياة الخواجا التي تحمل دلالة خاصة كاشفة عن طبيعة شخصيته، مثل ميلاده وطفولته وزواجه وإدارته لأملاكه خصوصا حادث وقوعه في البئر. والارتداد الخارجي "هو

ذلك الذي يستعيد أحداثا تعود إلى ماقبل بداية الحكي"[٦]. والارتداد الداخلي "هو الذي يستعيد أحداثا وقعت ضمن زمن الحكاية أي بعد بدايتها""[٧].

فقد بدأت الرواية بلحظة تعرف الطبيب المعالج للخواجا عليه في الملجأ أثناء القصف المتبادل للميليشيات على هذا الملجأ، ثم حدثت الارتدادات الكاشفة عن طبيعة شخصية الخواجا وعن طبيعة التركيبة الاجتماعية في لبنان منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين وذلك من خلال سرد هذا الطبيب الذي نهض بمهمة الراوي.

أما المكان فقد استأثرت لبنان بمعظم الكتل السردية في هذه الرواية، ويبدو من طبيعة المكان كثرة الطرق الجبلية والغابات هذا في الريف اللبناني، وفي بيروت ظهر المكان المغلق من خلال الملجأ الذي شهد عمليات تعرف السارد المشارك، وهو الطبيب على الخواجا، كما ظهر المكان المغلق أيضا في البيت الذي ضم الكنز البابوي، وفي البيت الذي شهد موت الخواجا، وظهر أيضا في بيت عباس السائق الذي فقد حياته حين عودته من توصيل الخواجا لضيعته، و "البيت هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام البقظة"[٨]. وكانت الشوارع في بيروت شاهدة على القصف والموت بين أبناء الوطن الواحد الفرقاء. ولم يكن المكان اليابس هو الوحيد في الرواية وإنما كان هناك المكان البحر متمثلا في البحر الأبيض المتوسط الذي شهد رحلة أمير البلاد إلى أوروبا وحصوله على الكنز البابوي، وشهد أيضا رحلة الخواجا المسائية في مركب من بيروت إلى قريته "الجية" ولكنه لم يصل إليها بسبب انتباه الميليشيات له وإطلاقهم القذائف عليه مما أدى إلى إصابة موتور المركب وتعطيله وعاد الخواجا به وهو يساعد صاحبه على التجديف، وكان ضوء القمر هو السبب في انتباه الميليشيات له وإطلاقهم القذائف عليه.

ومن هنا فإن سحر المكان متمثلا في البحر والقمر تراجع تماما بسبب حالة الترقب والخوف التي صاحبت الخواجا وصاحب المركب، وظهرت المعاناة الشديدة وذلك بسبب وطأة الحرب والحقد.

كانت اللغة الفصحى هي المهيمنة على السرد والحوار، ولكن بعض الكلمات اللبنانية تسربت إلى لغة الحوار دون أن يشكل ذلك ظاهرة كبيرة فيها، وكان المجاز منحسرا إلى حد كبير فقد جاءت العلاقات بين الألفاظ في المنطقة المأمونة، وكانت سمة التوصيل واضحة في هذه اللغة التي لم تمثل عائقا أو تسجل صعوبة كبيرة في فهم الرواية أو عدم القدرة على متابعتها بسهولة.

ويبدو السياق الاجتماعي ذا وضوح بارز في هذه الرواية، والحقيقة أنه "لطالما سعى علم الاجتماع، منذ نشأة الماركسية وعلم اجتماع المعرفة الذي أسس له كارل مانهايم (Karl Mannheim) فيما بين الحربين العالميتين، إلى تفسير النصوص السياسية، والفلسفية، والأدبية بالنظر إلى سياقاتها الاجتماعية"[٩]. وقد جاءت هذه

الرواية متفاعلة مع لحظة اجتماعية خاصة في تاريخ لبنان، وهي لحظة الحرب الأهلية الطاحنة والاجتياح الإسرائيلي الغاشم.

وكانت المعالجة الروائية لهذا الحدث كاشفة عن أدب الحقيقة، لأن المتلقي لا يجد إغراقا في الخيال عبر أحداثها، وإنما تظهر السمة الحقيقية، وقد تجلى ذلك من خلال بعض الملامح، ومنها:

ـ حدوث الحرب الأهلية اللبنانية تاريخيا في الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠، ووجود مصادر توثق ذلك.

ـ اللغة الهادئة التي تجعل هدفها التوصيل، ولا تغرق في الانزياحات اللغوية.

ـ العلاقات التفاعلية بين الزمكاناس لا تسجل هيمنة للخيال فيها، وإنما جاءت مقنعة بإمكانية حدوث ذلك على وجه الحقيقة.

ـ ظهور بعض ملامح السيرة الذاتية، بما تشي به من حقيقة، وذلك من خلال سرد طبيب معالج للخواجا، ومعرفة المتلقي أن المؤلف الحقيقي للرواية هو الدكتور محمد الطعان، وهو طبيب معروف، وطبيعة عمله في مجال الطب معروفة لمتابعيه، كما أن معايشته لأحداث ووقائع الحرب الأهلية معروفة أيضا، لأنه طبيب لبناني لم يغادر وطنه أثناء الحرب الأهلية، وكان أثناء هذه الحرب حاملا لشهادة الطب ويمارس عمله باعتباره طبيبا.

ـ وجود أسماء الأماكن التي وردت في هذه الرواية باعتبارها حقيقة ماثلة في الواقع الخارجي، فمدينة بيروت التي وردت في الرواية لها تمثل حقيقي في الواقع، فهي عاصمة لبنان، ومعروفة للجميع، وكذلك قرية "الجية" التي ورد اسمها في الرواية لها تمثل حقيقي أيضا في الواقع، فهناك في جنوب لبنان قرية اسمها "الجية"، والبعض يعرفها. هذا فضلا عن أسماء الأماكن الأخرى التي وردت في الرواية مثل قبرص وتركيا وغيرهما.

ـ التواؤم في السرد مع الحقائق الواقعية التي يعرفها المتلقي، ويستطيع بإعمال تصوره أن يتمثلها، فمثلا في الكتل السردية المخصصة لجد الخواجا والأمير المعاصر له لم نجد انحرافات تؤدي إلى توهم الخيال في السرد أو عدم حقيقته، حيث كان الزمن الخارجي في الكتل السردية الخاصة بما سبق يقع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن هنا لم نجد ذكر شئ تم اختراعه بعد ذلك، أو حدث تاريخي معروف وقع بعد مرور هذه الفترة، وإنما كان الجو العام يسير في فلك هذا الزمن الخارجي، مما ساعد في التكريس لعملية تقبل هذا السرد على أنه حقيقة.

ـ في المناقشات التي تمت لهذه الرواية في مصر وغيرها، وكان ذلك بحضور المؤلف د محمد الطعان، وقد اشتركت في إحدى هذه المناقشات ذكر في مداخلته أن رواية الخواجا لها مرجعية حقيقية، فقد التقى مسيو جوزيف أو الخواجا حقيقة في بيروت

أثناء الحرب الأهلية اللبنانية وعالجه، وذكر له قصة الكنز، وطلب منه الخواجا المرور على بيته في قرية "الجية"، كما ذكر أن أحداث الرواية الباقية لها أبضا مرجعية حقيقية من الواقع اللبناني في القترة التي تتناولها الرواية.

وهذه الرواية تعد من أدب الحرب، والحرب أيضا لها مرجعية حقيقية من الواقع اللبناني ـ كما سبق القول ـ حيث ظهرت سيطرة الموت العنيف على أحداثها وشخصياتها. فالشخصية المحورية عانت أشد معاناة من الحرب الطاحنة، ولم تستطع أن تعود لبيتها بعد أن أجبرت على مغادرته، حتى تكون بجانب الكنز البابوي الموجود في البيت. والابن البكر للخواجا يموت متفحما بقذيفة، وهو ضمن مجموعة الصليب الأحمر في سيارة الإسعاف يقوم بواجبه الإنساني. وسائق التاكسي الذي يبذل أقصى طاقته من أجل أن يعول أسرته تهبط عليه وعلى سيارته قذيفة تودي به في الحال، وابنه البكر يتعرض لإصابة تجعله مقعدا بقية حياته، وهكذا.

ولكن ما فتح باب الأمل على مصراعيه، وجعل المتابع للرواية يلتقط أنفاسه ويشعر بالرضا بعد تعرض أعصابه لعنف شديد نتيجة ما يقرأ هو هبوط السلام وسيادة الموسيقى في آخر الرواية. فأحمد ابن فاطمة أخت الخواجا من الرضاعة هو الذي سرق الكنز البابوي، ولكنه هو أيضا من أعاده لمكانه من بيت الخواجا، وكان وهو يعانق تيودور الابن الأصغر للخواجا كان كأنه يعانق الخواجا نفسه، وحل السلام والتسامح في قلب هذه الشخصية محل العنف، كما أن الابن البكر لسائق التاكسي والذي أصبح مقعدا نتيجة انغماسه في الحرب الطاحنة وإصابته فيها جاء إلى بيت الخواجا وحل التسامح في قلبه بديلا عن الحقد واضطرام القلب.

وتيودور الموسيقي الموهوب وهو الابن الأصغر للخواجا نظر إلى الفلاحين في أرضه، وهم يعملون وبدأ يعزف الموسيقى، في إشارة واضحة إلى حلول الخصب والسلام محل الجدب والموت العنيف.

وقد ظهرت في هذه الرواية أخلاقيات الحرب سواء كانت أخلاقيات سلبية أم أخلاقيات إيجابية، فمن الأخلاقيات السلبية سيطرة الحقد الرهيب ونفي الآخر من الوجود وشيطنته وقتله بعنف، وسيادة عاطفة الانتقام والكره، وهيمنة السرقة دون وازع من ضمير، وسيطرة الخوف والدمار والفوضى، ومن الأخلاقيات الإيجابية الشجاعة ومعرفة العدو الحقيقي، والتعاون والتسامح، وإغاثة الملهوفين ونقل الجرحى ومعاونتهم، وحضور دور المنظمات الداعمة للمصابين وذويهم. والبناء بعد الهدم والإحساس الكبير بأهمية السلام وقيمته والتمسك به والنضوج الإنساني.

ومن هنا فإن هذه الرواية تعد مرآة تعكس واقع المجتمع اللبناني في فترة الحرب الأهلية، وكان تركيزها الكبير على الحدث أكثر من تركيزها على إحساس الشخصيات بوقع هذا الحدث على نفوسهم، ولذا فإنها تنتمي لأدب الحقيقة.

الهوامش:

[١] أ. أ. مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة بكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص٧٨.
[٢] سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة، نحو ممارسة أدبية جديدة، منشورات جريدة الزمن، ص١٣.
[٣] مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص٣٩.
[٤] محمد طعان، الخواجا، ترجمة علي مقلد، دار سائر المشرق، الطبعة الثالثة، ٢٠١٤، ص٩.
[٥] لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، ناشرون، دار النهار للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص.٩٥.
[٦] لطيف زيتوني، السابق، ١٩.
[٧] لطيف زيتوني، السابق، ص٢٠.
[٨] باشلار، جماليات المكان، ترجمة راغب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧ ص٣٨.
[٩] بيير زيما، النص والمجتمع، آفاق علم اجتماع النقد، ترجمة أنطوان أبو زيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٣،ص١٧..